شعر الحكمة عند يحيى بن الحكم الغزال

الملخص

التعبير عن الحياة والفلسفة والحكمة في القصائد لايمنع الشاعر من الحديث عن كل ما هو غريب من تصور الإنسان للتعقيد المادي للحياة مع الإكثار من مخاطبة العقل وتحكيم المنطق عند تقديمه للحلول الاجتماعية في قصائده المختلفة, على الخصوص التي تتناول النقد الاجتماعي. فالبعد الحقيقي والعميق لقصائده الفلسفية تتضح في كثير من الأحيان عندما يقدم الشاعر على معالجة مشاكل المجتمع. وأنَّه كان صريحاً وواقعياً وصادقاً في اعترافاته. ولقد جعل كل خبراته في الحياة والمجتمع في مجموعة من قصائده الزهدية التي نظمها في المرحلة الثالثة من حياته. و يمكن أن نقول أن الشعر كان يمثل الحياة الحقيقي للغزال ولقد أصبح يجمع بين هموم الذات وهموم الجماعة ، يروم كشف الواقع واستشراف المستقبل متنقلا من التفسير إلى التغيير. وبمعنى آخر، لقد أصبح وعي الشاعر بالذات وبالزمن وبالكون مرتبطا بوعيه بالجماعة، ومتضمناً له. وماكان لشيء من ذلك أن يحدث لولا وعي الشاعر بالحياة وفلسفة العيش والتعايش التي يرمز إليها برمز واحد، ذي طابع شمولي، هو رمز الموت الذي يعني موت الذات وموت الزمن الماضي بكل أمجاده والحاضر بكل تطلعاته سيما وإن الصراع بين الموت والحياة في تجربة الشاعر يعني في آخر الأمر الصراع بين الحرية والحب والتجدد، وبين الحقد والاستعباد والنفي من المكان ومن التاريخ.

الكلمات الدالة : الحياة، الموت، النقد الاجتماعي، الفلسفة، القصائد.

Yahya ibn el-Hakem el-Gazel'de hikmetli şiir

Goran Salahaddin SHUKUR[1]

APA: Shukur, G. S. (2019). Yahya ibn el-Hakem el-Gazel'de hikmetli şiir. *RumeliDE Dil ve Edebiyat Araştırmaları Dergisi*, (16), 693-702. DOI: 10.29000/rumelide.619704

Öz

Şair, felsefe ve hayatı anlatan şiirlerini yazdığı zaman insanların akıllarının alamayacağı kadar hayatın karmaşıklığını anlatmış ve aynı zamanda akla dayalı sosyal eleştirilerini yaparken çözüm önerilerinde sunmuştur. Özellikle sosyal eleştiri içeren şiirlerinde şair, sosyal ve toplumsal olayları anlattığı zaman felsefi görüşlerini de ortaya koymuştur. Şairin görüşleri oldukça açık ve nettir. Şair, hayat tecrübesini özellikle hayatının son aşamasında yazmış olduğu dini şiirlerinde yansıtmıştır. Böylece şair hem kendi hem de hayatın sorunlarını anlamak için toplumun düşünce şeklini anlamaya çalışmıştır. Çoğu zaman şair, hayatı anlatırken ölüm ve yaşam temalarını şiirlerinde ele almıştır. Şaire göre yaşam ile ölüm arasındaki mücadele özgürlük, sevgi ve değişimin sembolüdür.

Anahtar kelimeler: Yaşam, ölüm, sosyal eleştiri, felsefe, kasideler.

Abstract

Yahya ibn al-Hakam al-Kazal and his view toward life

It is quite normal, for the poet, to express the philosophy of life and its wisdom through depicting the complexity of life in which man is living. In other word, the poet intends to present solution to Man who is confined with materialism throughout social criticism. In addition, the realistic and the profound view of life have been presented while the poet deals with social problems. In this sense, the poet is honest and realistic in his confession. In the third phase of his life, the poet composed a collection of poems which tackled with his own society as well as his experiences through ascetical

1 Doç. Dr., Selahaddin Üniversitesi, Diller Fakültesi, Arap Dili ve Edebiyatı Bölümü (Erbil, Irak), goselahattin1@yahoo.com, ORCID ID: 0000-0001-8555-1941 [Makale kayıt tarihi: 09.08.2019-kabul tarihi: 20.09.2019; DOI: 10.29000/rumelide.619704]

poetry. Poetry, for Al-Kazal, demonstrates the real life in which he combined his personal and socialgrief. In other words, the poet becomes aware or conscious upon his self, time and universe. By doing so, the poet intends to say that life and its philosophy are related to each other. Death, for the poet, means the dead of soul and past time. Thus, the struggle between life and death in his poetical experiences means the struggle between freedom, love, hostility and slavery, expatriation from place and history on the other hand.

Keywords: Life, death, social justics, philosophy, poems.

المقدمة

كان المجتمع الأندلسي في بدايات الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأندلسية يتشكل من الفاتحين العرب والبربر إلى جانب السكان الأصليين للأندلس الذين انسجموا مع الحضارة الإسلامية الجديدة الوافدة إلى بلادهم، سيما وانَّ راية الحرب، والدعوة إلى الجهاد في العقود الأولى للفتح وحدت صفوف العرب والبربر. وبذلك دخل قسم كبير من أهل البلاد من النصار واليهود في الإسلام، وتمتع باقي السكان اللذين بقوا على دينهم من النصارى واليهود بحياة مطمئنة، ومارسوا شعائرهم الدينية بكل حرية كما دعا إليها تعاليم الدين الإسلامي من التسامح والقبول للآخرين بمعتقداتهم الدينية.وكان للمجتمع الأندلسي الجديد عناية خاصة باللغة العربية وعلومها وآدابها، إضافة إلى الفقه وعلوم الشريعة، وكان الخلفاء يستقدمون العلماء من المشرق لينقلوا معهم كنوزهم الأدبية فيتأدب بها الكثيرون. وكان لرجال العلم والأدب في الأندلس شأن عظيم لدى الدولة، ولدى عامة الناس. فلذلك نجد في كثير من الأحيان الملكة الشعرية الفطرية أو مكتسبة ناضجة عند كثير من الخلفاء والأمراء والولاة في الأندلس.

امتاز الشعر الأندلسي في جملته بالتقليد والمحاكاة للشعر الشرقي بشكل عام فلذلك نجد إبداع الشعراء في الأغراض التقليدية كالغزل والزهد والتصوف والمدح والهجاء والرثاء، وقد طوروا في بعض الأغراض الشعرية سيما وأنَّ المعطيات السياسية والاقتصادية والطبيعية كانت جديدة، ففي موضوع الرثاء أوجدوا «رثاء المدن والممالك الزائلة» و طوروا «شعر الاستغاثة»،وتوسعوا في وصف البيئة الأندلسية الجميلة الخلابة، واستحدثوا فن الموشحات والأزجال. سيما وأنَّ الطبيعة الأندلسية الجميلة ألهبت قرائح الشعراء، فرسموا لوحات شعرية متنوعة أودعوها أخيلتهم وعواطفهم الصادقة والفنية.

اشتهر الشعراء في بدايات الفتح الاسلامي في الأندلس بكونهم من الطبقة الخاصة الحاكمة أو الحاشية القريبة من الحكم سيما وأنَّ النظرة العامة في الشعر هي شيوعه في المجتمع الأندلسي، إذ لم يكن الشعر وقفًا على الشعراء المحترفين وإنما شاركهم في ذلك الأمراء والوزراء والكتاب والفقهاء والفلاسفة والأطباء وأهل النحو واللغة وغيرهم. فالمجتمع الأندلسي بسبب تكوينه الثقافي القائم على علوم العربية وآدابها، والطبيعة الأندلسية التي تستثير العواطف وتحرك الخيال، جعل المجتمع يتنفس الشعر طبعًا وسليقة وبذلك تحول معظم أهله إلى شعراء. وإلى جانب ذلك ظهر شعراء من العامة كيحيى بن حكم الغزال، وقد ترك لنا الشاعر شعراً يصنف في ثلاث مراحل: الأولى: مرحلة الشباب، وتغلب عليها موضوعات الغزل وما يتصل بذلك من دعابة ومجون، وقد سافر إلى بلاد النورمان أيام عبد الرحمن الأوسط فأعجب بملكتهم «تيودورا» وابنها فوصفها في شعره، والثانية هي مرحلة التعقل والأناة، وتغلب عليها موضوعات النقد الاجتماعي، ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الزهد التي يذكّر فيها بالموت والفناء. فالتصنيف للمراحل الشعرية عند الغزال استند إلى مراحل حياته وطبيعة عيشه في تلك المراحل المختلفة.

-رؤية الشاعر* في الحياة:-

الحياة كلمة شاملة تحمل في طياتها الزمان والمكان والحضارة وتأثيرات كل فب المجتمع والإنسان سيما و أنَّ الجمال والترف مع الرفاهية واللهو شمل جميع مناحي الحياة في الأندلس ومجتمعها. إذ لا حاجة لنا بتعريف الكلمة لغة واصطلاحا ؛لأنَّ لكل شاعر زمانه ومكانه مع البيئة الاجتماعية التي عاش فيها وتعلم الشعر وأنشدها مع ظهور الملامح الأساسية للشعر ومعانيه عنده.فالغزال بحياته والمراحل المتنوعة لها ولشعره المتنوع في ظل المؤثرات الاجتماعية والسياسية تعطي للبحث منحى التقصي في مراحلة مختلفة من حياته وشعره و خصوصاً التي أدت إلى نضوج شعره وبروز شخصيته الفريدة فيه. وبذلك نستطيع أن نرصد علامات وطوابع ظاهر في شعره, فمضمون الشعر عند الغزال, تتمثل في تجاربه الذاتية في مختلف مراح حياته المتنوعة, الذي تخلق في نفسه معان وأفكار نابعة عن بيئته الطبيعية والاجتماعية. فالمضمون يغلب عليه الحضارة والتجديد والابتكار, وفيه تتجلى شخصية الشاعر والمجتمع الأندلسي بوضوح. فالغزال كان مبدعاً بشعره وتجربته الفنية سيما وأنه نظم الشعر في أغراض شعرية مختلفة وكان له مقدرة فنية عالية على نظم الشعر ومجاراة المشارقة وعمالقتها من الشعراء. اذ يروى عنه عندما دخل العراق بعد موت أبي

* يحيى بن الحكم البكر الجياني الملقب بالغزال لجماله, من بني بكر بن وائل. قال ابن حيان في (المقتبس) كان الغزال حكيم الأندلس, وشاعرها, وعرافها. عمر اربعا وتسعين سنة, ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالأندلس؛أولهم عبد الرحمن بن معاوية, وآخرهم الامير محمد بن الحكم. أنظر لما يقوله في احدى قصائده:
أدركت بالمصر ملوكا اربعة وخامسا هذا الذي نحن معه.....ينظر في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني, تحقيق الدكتور احسان عباس, دار صاد, بيروت,ص ج2 254.

Adres
Kırklareli Üniversitesi, Fen Edebiyat Fakültesi, Türk Dili ve Edebiyatı Bölümü, Kayalı Kampüsü-Kırklareli/TÜRKİYE
e-posta: editor@rumelide.com

Adress
Kırklareli University, Faculty of Arts and Sciences, Department of Turkish Language and Literature, Kayalı Campus-Kırklareli/TURKEY
e-mail: editor@rumelide.com

نواس بمدة يسيرة, فوجد أهله يلهجون بذكره, ولا يساوون شعر احد بشعره, فجلس يوما مع جماعة منهم فأردوا بأهل الأندلس, واستهجنوا أشعارهم, فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس, فقال لهم (الداية، 1993، صفحة 29):

ولمّا رأيتُ الشَّرب أكدتْ سماؤهم تأبَّطْتُ زقّي وأحتَسبتُ عَنائي
فَلَمَّا أتيتُ الحانَ ناديتُ رَبَّـــــهُ فثابَ خفيفَ الرُّوحِ نحو ندائي

فأعجبوا بالشعر , وذهبوا في مدحهم له, فلما أفرطوا قال لهم: خفضوا عليكم فأنه لي, فأنكروا ذلك, فأنشدهم قصيدته التي أولها (الداية، 1993، صفحة 30):

تداركتُ في شُرب النَّبيذِ خَطائي وفارقتُ فيه شيمتي وحَيائي

فلما أتم القصيدة بالإنشاء خجلوا , وافترقوا عنه (التلمساني، 2008، صفحة 261) هذا ما كان يرى من التطابق التام بين شاعر أندلسي وآخر مشرقي في طريقة النظم, وفي الخصائص الأسلوبية وطبيعة المعان إلى الحد الذي يصعب معه التميز بينهما (عتيق، 1976، صفحة 161)ويقال أيضا أنَّه أراد أنْ يعارض سورة(قل هو الله أحد) فلما رام ذلك أخذته هيبة وحالة لم يعرفها, فأناب إلى الله, فعاد إلى حاله (التلمساني، 2008، صفحة 261).

الدولة العربية الإسلامية بعهودها المختلفة في الأندلس أخذت تقارع المشارق وتضارع دولة بني العباس في المشرق و تنافسها في التقدم العلمي والحضاري وتتجلى ذلك في قصائد شعرائها, سيما وأنَّ عوامل التجديد بين البيئة الاندلسية والمشرقية كانت نفسها ومتماثلة, والبيئة الجديدة كان لا بد لها أن تصبغ الأدب بلون خاص, لأن الأدب هو مرآة حياة الأمة. (الفاخوري،د,ت, صفحة 797).

كثر اهتمام الدرسين والنقاد للقضايا الأندلسية بجوانبها المتعددة من حياة المجتمع الأندلسي بشكل عام حتى يتسنى لهم دراسة الأدب العربي في الأندلس على ضوء المؤثرات الخارجية لتكوين الشخصية الأدبية للشعراء الأندلسيين مع الأخذ بنظر الاعتبار للعوامل الداخلية المساعدة على تكوين هذه الشخصية الفنية والشعرية للشعراء وعلى الخصوص شخصية يحيى بن الحكم تقدم لنا دراسة موجزة عن حياة الشاعر وسفاراته ورحلاته وتأثير ذلك في تكوين شخصيته الأدبية مع تشكيل نظرته العميقة في الحياة والإنسان و ظهور فلسفته بشكل واضح في قصائده الحكيمة.

ممارسة الحياة والتعبير عنها والتعليق عليها عند الشاعر ونظرته العميقة وفكره الفلسفي عن الحياة جعله يعبر تعبيراً صريحاً وسريعاً عما يراه, ويكاد يكون تصويراً له, ولكن بعين البصيرة, وعين البصر معاً, ومن خلال واقعته اتسم شعره باللذع أحيانا (البنداق، 1979، صفحة 24) ولقد اعتمد الشاعر في كثير من قصائده على ثقافة الحوار وأبداع النزعة القصصية فيها, وقد ساعده ذلك على عرض آرئه مع اعطاءه للشعر حيوية وحركة, وحرية في الآراء (الداية، 1993، صفحة 30):-

تداركتُ في شُرب النَّبيذِ خَطائي وفارقتُ فيه شيمتي وحَيائي

الحديث عن الشاعر وعن نظرته في الحياة والإنسان وأحواله تستوجب منا أن نعرف أنه قد عاش حياة حافلة بمختلف أنواع الاستهتاروالإتزان والتوبة والزهد من العيش فهو في هذه القصيدة يجري على طريق المستهترين بالشراب, فقد تدارك خطاءه!!!,وصنع ما يصنعه الشراب, ولابد أن نقول أن الشاعر قد فارق طبعه السليم وحياته الفطري والإتزان الذي كثيراً ما اتسم به الشاعر وهذا يدل على نظرة الشاعر إلى الحياة من زاوية اللهو والشرب والاستهتارفي تلك الفترة الزمنية التي عاش فيها المرحلة الأولى من حياته سيما وأن الشاعر عرف بجوانب أخرى من حبه للحياة وتمسكه بها (الداية، 1993، صفحة 32):-

لا, ومَنْ أعْمَلَ الْمَطايا إليهِ كُلُّ مَن يَرتجي إليه نَصِيبا
ما أرى همُنا مـنَ النَّاسِ إلاّ ثَعْلباً يطلبُ الدَّجاجَ وذِيبا
أو شبيهاً بالقِطِّ أَلْقى بعَيْنيـ ـهِ إلى فـأرةٍ يُريدُ الوُثوبا!

النظرة العميقة والرؤية المميزة للشاعر في الحياة والناس حوله تتجلى في هذه القصيدة أو القطعة القصيرة التي هي في غرض واحد فهو لا يرى من الناس حوله الا الطامح والطامع فالثنائيات الضد في المعنى والمغزى نجده في تشبيه الناس تارة بالذئب وتارة أخرى بالقط, فعلامات القوة عند الذئب صيد الدجاج وعند القط عدائه للفأر.فالشاعر تقصد في استعمال الذئب والقط في وصف الإنسان, سيما وأن الذئب والقط إنما يحملان معان المكر وعدم الوفاء, المعاني التي تدل على الزيف والخداع والتصنع . فهو لم يكن ببعيد عن أقرانه من شعراء الأندلس"فالواقع أنه لم ينشأ من حكماء العرب وفلاسفتهم شعراء مجيدون قدر من نشأ منهم بالأندلس وحدها. ولم يكن للفلسفة تأثير على شعرهم إلّا من جهة الخيال وقوة التصور وبراعة الابتكار بحيث تدل على عقل صاحبها دلالة المطابقة, وبذلك زادوا في محاسن الشعر, وقل أن نجد في غير الأندلسيين من استطاع أن يطوع الفلسفة للشعر والشعر للفلسفة, وكان بذلك شاعراً فيلسوفاً" (عتيق، 1976، صفحة 211) . فالصورة في هذه القصيدة محاكاة للواقع وتعبير عنه, وأنه لم

يخلق واقعاً جديداً لم يعرفه الإنسان العربي في ظل العيش مع المعطيات الجديدة في الأندلس وكأن هذه الخصال صارت في كثير من الناس حوله عادات نزلت منزلة الطبائع! ويقول ايضا (الداية، 1993، صفحة 35):-

ومُراءٍ أخَذ النّـــــــا س بِسَمْتٍ وقُطـــوبِ
وخُشوعٍ يُشبـــه السُّقْـ مَ وضَعفٍ في الدَّبيبِ
قلتُ: هـــل تألمُ شَيئاً؟ قال: أثقالَ الـــذُّنوبِ!
قلتُ: لا تُعْـــنَ بشيءٍ أنتَ في قالَبِ ذِيبِ!
إنّما تَبني علـى الوَثْـ ـبَةِ في حينِ الـــوُثوبِ
ليسَ مَنْ يَخس عليهِ منـــــــكَ هذا بلبيبِ!

كانت المشاكل الاجتماعية التي عانى منها الجتمع العربي في الأندلس آنذاك من الموضوعات المهمة التي أثارها الشاعر في كثير من قصائده سيما وأن مشكلة الرياء في القصيدة السابقة قد تم الإشارة إليها عندما شبه الشاعر الإنسان بالثعلب مكراً والثعلب كما نعلم رمز للخداع والمكر والرياء, فالرجل هنا إنسان مخادع, يخدع الناس. ولا يخفى على القارئ أو المتذوق للقصيدة مقدرة الشاعر في تناول الأحداث والمشاكل الاجتماعية من باب الهزء, والهزل, والإضحاك على الشخصية المعالجة. ومن جهة اخرى نجد حسن تعامل الشاعر مع التكرار لبعض الكلمات والمعاني ساعده على خلق جو موسيقي يساعد على تعميق الجو العاطفي المطلوب, وخلق الأثر النفسي المناسب, فهو يخلق أحيانا الجناس الموسيقي للقصيدة من خلال التكرار. ليجعل القصيدة أشد وقعاً وأثراً على السامع, فهو شاعر حكيم له فلسفته الخاصة في الحياة والناس ومشاكلهم الاجتماعية مع الإحتفاظ بنظرته الخاصة إلى بعض المشاكل أو الأمراض الاجتماعية التي تطيح بالإنسان وسعادته سيما وأنه يقلل من تفأله وتزيد من التشاؤم عنده (الداية، 1993، الصفحات 38-39).

بَكَرتْ تُحسِّنُ لي سوادَ خِضـــــابي فكأنَّ ذاك أعـادني لشبابي
ما الشَّيبُ عندي والخضابُ لواصفٍ إلّا كشمسٍ جُلّلتْ بضبابِ
تحفى قليلاً ثم يقشَعُهـــــــا الصَّبا فيصيرُ ما سُترتْ بـهِ لذهابِ
لا تُنكري وضحَ المشيب فَإنّمـــــا هو زهرةُ الأفْهـامِ والألبابِ
فَلذيَّ ما تهوينَ من شَأن الصِّبـــا وطُلاوة الأخـــلاقِ والآدابِ

النهج اللطيف وحسن المعاني في هذه القصيدة إنما تدل على حكمة الشاعر وفلسفته في الحياة, ففي القصيدة حسن التعليل للشيب, ومحاولة لقلب ما شكا منه الشعراء خاصة- وجمهرة الناس عامة- من سوء نذير الشيب فهو يقابل ويعادل بين شيبه و الضباب حول الشمس فأن بياض شعره كالضباب حول الشمس لابد أن ينقشع عنه كما ينقشع الضباب عن الشمس. فهو كعادة شعراء الأندلس لاينكر المشيب ولا يعيبه فهو إن دل على شيء يدل على العقل والحكمة والتجربة.

-الفلسفة والفكر

الفلسفة والفكر إلى جانب الحكمة وأصالة الرأي وحسن التدبر كانت من الصفات المهمة للشاعر في قصائده عامة, فهو إلى جانب كل ما قلناه من الحكمة والفلسفة كان له جانب آخر وهو جانب النصح والتوجيه للآخرين (الداية، 1993، الصفحات 67-68):

يقولُ لي القاضي مُعاذٌ مُشاوراً ووَلّى امرءاً- فيما يَرى- من ذَوي العدل:
فَدَيْتُكَ! ماذا تحسبُ المرءَ صانِعاً فقُلتُ: وماذا يفعـــلُ الدّبُّ في النّحْلِ!!
يَذُق خَلاياها ويأكـــــلُ شهدَها ويتركُ للـــذّبانِ مـا كانَ من فَضْلِ!!

يقال عن معاذ بن عثمان الشعباني عندما ولي القضاء فيما بعد أخيه, وكان على عكسه طيباً, زاهداً, عابداً, خيراً ولكنه كان يعجل في اصدار الأحكام. وكان من طيبة قلب معاذ أن ولى أحباس قرطبة رجلا ظن منه خيراً, ومالبث أن أكتشفه وشكى أمره وما وقع فيه للغزال (البنداق، 1979، الصفحات 35-36). يقيم الشاعر في هذه القصيدة حواراً مع القاضي ولكن باسلوب جميل بعيد عن التنقيص والتنكيل من شأنه, لأنه كان صاحب شأن عنده, فالقاضي لايسأله عن شيء إنما يشاوره في عمل قام به ربما انعكس نتائجه سلباً على عمله وهذا يدل على مدى الداقة التي توخاها الشاعر عندما أراد أن ينصح القاضي سيما وأن القاضي شاوره لعقله وفهمه في الحياة والمجتمع. فهو يشبه أبا الفضل بالدب وعبثه بالنحل وعسله وتخريبه للخلايا وتركه القليل من العسل حتى يستفيد منه الذباب.

استخدام الحيوانات كرموز من المسائل الشائعة في الثقافات القديمة، وذلك كوسيلة لربط الفرد بالأرض والطبيعة وقوة الحيوانات المختلفة. أما الحيوان القوي فهم يعتقدون أنه روح في هيئة حيوان تسعى لتعليم الإنسان دروس معينة. وكل حيوان يمثل شخصية، وطريقة سلوك، أو مهارة. فكثير من الشعوب لديهم معتقدات معينة عن بعض الحيوانات، فمثلاً يُعتقد أن البومة تمثل الحكمة. أما الشعوب الشامانية فتزيد على هذا وتتجاوزه، فهم يلاحظون الطريقة التي تعيش بها الحيوانات، وتبحث عن طعامها، وعن شريكها، وطريقة حمياتها لأنفسها، ويعرفون نقاط القوة والضعف في كل حيوان، يكون لها تفسيرات متشابهة لشخصيات وسمات الحيوانات. على سبيل المثال، هم يعتقدون أن الفأر يمثل التدقيق وإمعان النظر بسبب الطريقة التي يلاحظ بها الأشياء عن قرب.

عندما يشبه الشاعر أبا الفضل بالدب دونا عن الحيوانات المفترسة الأخرى والتي كانت ترمز الى الجمال والقوة والشخصية العالية الرفيعة كان يقصد بذلك أن يربط بين الدب وأبا الفضل في السلوك والتصرف, فالدب كما نعلم رمز للقوة والعنف مع الإفتراس والفتك والقتل فهو لايبقي من العسل الا القليل الذي لايكفي حتى الذباب. فالذباب إنما تدل على الضعف والقلة سيما وأن الذبابة تقتات على المخلفات والفضلات. نظرة الشاعر في الحياة والعمل فيها ليست بالحجم والكم دون أي شك بل بالعطاء و الفائدة سيما وأن العمل إما أن تكون صالحاً أو طالحاً كانت. أنظر و هو يقول في الإنسان وعمله ونواياه (الداية، 1993، صفحة 43):

إذا أُخْبِرتَ عن رَجُـــلٍ بَريءٍ مـــن الآفاتِ ظاهِرهُ صَحيحُ
فَسَلْهُم عنهُ: هَلْ هو آدميٌّ؟ فإنْ قالوا: نَعَمْ, فالقولُ رِيْحُ!
ولكنْ بعضُنا أهـــــلُ استِتارٍ وعندَ الله أجمَعُنـــــا جريحُ
ومن إنعامِ خالِقنـــــا عَلينا بأنّ ذُنوبَنا ليست تَفـــــوحُ
فلوا فاحتْ لأصبَحْنا هُروباً فُرادى بالفَلا مـــــا نستريحُ
وضاقَ بكلِّ مُنتحلٍ صلاحاً لنَتْنِ ذُنوبِه البَلدُ الفسيحُ!

الحوار النوعي والذكي الذي أقامه الشاعر في مواقع كثيرة من أجل ما كان يقصدها من فكرة جليلة وصورة فنية رائعة تعبر عن الحياة وما فيها والإنسان بنواياه سيما وأن الشاعر في هذه القصيدة أراد أن يتحدث عن الإنسان والحياة ومعالجته للمشاكل الاجتماعية العديدة ضمن تشكيلة صورية رائعة رسم لنا اللوحة الفنية الفلسفية التي تعطي لنا الفكرة الواضحة عن المجتمع الاندلسي بحسنه وسوءه آنذاك, فهو لا يكذب مقابله مباشرة بل يجعل من الصورة الفنية سببا إلى جعل المقابل لكي يتأمل الحياة والإنسان حتى يعدل عن رأيه الظاهر والمغلق لقوانين الحياة والبشر التي تطيح به وبسعادته الأبدية.

فهو عندما يتعمد في استعمال بعض العبارات والمصطلحات في النسق الفلسفي المعين كان ينوي من وراء ذلك جعل الصور الوهيمة أقرب إلى القبول, فالآفات تدل على أن العيوب والمشاكل قد فاقت العيب أو المشكلة إلى جعل المشكلة مرضاً أو معضلةً اجتماعية. ربما أراد الشاعر بذلك التهويل للمشكلة اثبات عدم وجود إنسان خال من العيوب والمشاكل لان المسألة أكبر من كونها مشكلة أو عيب, لان العيوب والمشاكل موجودة في بني البشر سيما وأن الأمراض الاجتماعية تعصف بالإنسان العربي في الأندلس عندما أراد أن يواكب التغيير و المتغيرات الجديدة على أرض الواقع في الديار والبلاد الجديدة. فهو يحاول أن يتأقلم مع المجتمع الجديد الحاصل بعد الفتوحات الإسلامية آنذاك. و يتعجب الشاعر من الذي يصدق الآخرين بخلو آدمي من الآفات والمشاكل في الحقيقة والأصل,فالشاعر يرى من المستحيل تصديق ذلك.لكن مع ذلك يعود وينتقد المجتمع ضمناً في قبوله لبعض المشاكل الإنسانية التي توحي بتجاوز لبعضه المختلف الأسباب البشرية. إذ يقول بعضنا أهل استتار عن العيوب وإن كان جلياً واضحاً للعيان. لكن مع ذلك لا يهمل شكر الخالق لنعمه الكثيرة العظيمة لأن العيوب إن كانت لاتفوح إنَّما هي هدية من الله للبشر فلو فاحت لضاقت البلد الفسيح برائحة الذنوب والخطايا الكثيرة وعلى الأخص من عيوب الذين يدعون بصلاح أحوالهم على خلاف ماهم عليه من الشأن والأحوال.

الذي يتابع ديوان الشاعر, و يطلع عل شعره وأطوار حياته المتنوعة المختلفة بين فترة إلى أخرى سيجد ألواناً متنوعة من الشعر في النوع والكم في المضمون والشكل, فهو في بعض الأحيان يشرب ويلهو ويطرب, ويعيش للذة وقته, وبهجة حاضره, وفي بعض الأحيان يسخط على الناس والدنيا, وفي بعض الأحيان يغلب عليه الزهد والكفاف, كل هذا جعل منه شاعراً مجدداً, مبدعاً يأخذ بمجامع القلوب إعجاباً به وبفلسفته ونظرته الخاصة في الحياة. إذ أنَّ عموم شعراء الأندلس كانوا ينادون بمبادئ في السياسة والأخلاق, والاجتماع والعمران, والسلوك والآداب, والمدينة والحضارة (الخشب، 1970، صفحة 5)مما جعلهم كثيراً ما ينادون بالحكمة والفلسفة في الناس والحياة. فمن المشاكل التي كثيراً ما أراد الشاعر أن يعالجها مشكلة العمر ونظرة الناس إلى الشيب والفناء التي تجعل الإنسان في ظروف نفسية مختلفة صعبة (الداية، 1993، صفحة 45)

قالتْ: أُحِبُّكَ! قلتُ: كاذبةٌ غُرّي بِذا مَنْ ليسَ ينتقِدُ
هذا كلامٌ لَستُ أَقْبَلُـــــه الشَّيْخُ ليسَ يُحبُّه أحَـــدُ
سِيّانُ قولُكِ ذا, وقولُكِ إنَّ الرّيحَ نعْقِدهـــا فتنعقِدُ

Adres
Kırklareli Üniversitesi, Fen Edebiyat Fakültesi, Türk Dili ve Edebiyatı Bölümü, Kayalı Kampüsü-Kırklareli/TÜRKİYE
e-posta: editor@rumelide.com

Adress
Kırklareli University, Faculty of Arts and Sciences, Department of Turkish Language and Literature, Kayalı Campus-Kırklareli/TURKEY
e-mail: editor@rumelide.com

أو أن تَقُولي: النَّارُ بـاردةٌ! أو أنْ تقولي: الماءُ يتّقِدُ!

هناك قصائد كثير تدل عل ذكاء الشاعر وحكمته وبما كان يمتلكه من فلسفة واضحة في الحياة ومتاعها وفنائها, فالحوار قائم بين الشاعر ومقابله إذ لا يقبل الواقع المرير الذي يحس به الإنسان عند الشيب والعجز ويرفضه, لذلك فهو لا يقبل التي تقول له أحبك, فهي كاذبة فهو يريد بجوابه هذا أن يقدم لنا صورة عن نفسية الشاعر والإنسان بشكل عام عندما يبلغ به السن العجزوالتقدم, فهو لا يقبل هذا الكلام المناقض لقوانين الطبيعة والحياة, فنفسية الإنسان دائماً تدنو للجديد والحديث. لأن حسب تصور الشاعر ما من سبب لحب الناس للعجوز! طبعاً الحب هنا حب عاطفي وغرامي وليس الحب عطفاً أو حناناً أو احتراماً مقابل أكابر السن والشيوخ. ويشبه قولها أحبك هنا بعقد الحكم على الريح وربطه أو برودة النار وعدم حرقه وكأن الماء يتقد أو يحرق فاستحالة الوضع في جل ما قاله الشاعر تشبه حب الفتاة للعجوز ,فمن المستحيل وغير المنطقي أن تحب المرأة من لا حول له أو قوة لتقادم سنه وعجزه عن التمتع بالحياة ومتاعها.

بما أن الشاعر كان يتأثر بالحياة و عواملها المؤثرة على الشعر والفكر فأن التنوع والاختلاف في أطوار الحياة لديه ولد شعراً ذا طابع فلسفي وحكمي سيما وأن المحطة الثانية من حياته, كانت مرحلة كبر والتعقل, وتغلب على شعره في تلك المرحلة النقد الاجتماعي والأخلاقي, الذي ينبيء عن عمق في الوعي وقوة ادراك لعيوب الناس ونقائص الحياة (هيكل، 1985، صفحة 161). إذا كان لابد من ذكر الواقع الحياتي الذي ساعد في إخراج هذه القصيدة, فإنه يجب أن نذكر أن الشاعر قال هذه القصيدة في المرحلة الثالثة من شعره, فالشاعر هنا يعبر عن حدث معين ويخلق معادلةموضوعية للحياة وما فيها, ولقد كان وراء هذا بلاشك وعي الشاعر بعالم الفن وأساليبه, بصوته وإيقاعه, ومنطقه الخاص, ذلك لأنه لا جدوى من أن يعيد لنا الشاعر الماضي, أو يضع نفسه في خدمة الخيال واللامعقول, إلاَّ أننا سنرى أن الواقع الفني شيئا غير هذا. فالشاعر-منطلقاً من صدقه الداخلي- يقول لنا أن النغم السائد في القصيدة هو نغم الشك والخوف والكذب,سيما وأنَّ للشاعر قصائد كثيرة في الشيب يقول فيها (الداية، 1993، صفحة 62):-

وخيَّرها أبو هـــــا بين شَيخٍ كَثير المالِ أو حَدَثٍ فقيرِ
فقالتْ: خُطَّتا خَسْفٍ, وما إنْ أرى مِن خُطوةٍ لِلْمُسْتخيرِ
ولكنْ إن عَزمْتَ فكلُّ شيءٍ أحبُّ إليَّ من وَجهِ الكبيرِ!
لأنَّ المرءَ بعــد الفَقرِ يُثْري وهذا لا يَعُودُ إلى صَغيرِ!

هنا يعقد الشاعر مقارنة بين مجموعة من الأضداد في المعنى والمحتوى فالشيخ والحدث, المال والفقر إنما مجموعة من الكلمات ضد في المعنى أراد بها الشاعر أن يقول لنا أنه من الممكن الحصول على أية شيء عدا إعادة ما مضى, فالعمر عندما يمضي لايرجع ولايعود على عكس الفقر والغنى الذي من الممكن التحول فيه من وضع إلى آخر. إذ يخلق الشاعر هنا جواً من التشاؤم الحاصل والمحيط للمستخير فهو لا يرى لها حضاً لا في هذا ولا في ذاك. إلاَّ أنه لايهمل في سياق ذلك أن يعقد مقارنة وتفاضلا بين الضدين سيما وأنه يختار أهونهما شراً في نظره ونظرته إلى الحياة.

-الزهد والتصوف والدهر

القصيدة"مونولوج داخلي" يفكر فيه المستخير بصوت مسموع للتنفيس عن نفسها. فالشاعر هنا يستشفي بالشعر لأنه في حالة توتر ومعاناة,سيما وأنَّه لايريد أن يوصل فكراً, وإنَّما يريد أن يصعد آهات, بل لعله يخفي حديثه عن نفسه وعن معاناته من العجز والشيب وما فاته من السعادة والقوة والحياة والجمال. فمسألة العمر والشيخوخة من المسائل المهمة عند الشاعر ومن المشاكل العنيفة التي تعصف بالإنسان وعواطفه. إذ يعبر الشاعر من خلالها عن الحياة بحلوها ومرها (الداية، 1993، صفحة 49)

إنّي حلبتُ الدَّهرَ أصناف الدِّرَرْ
فمرّةً حلـــــوٌ وأحيـــــاناً مَقِرْ
وعَلقماً حينـــاً وأحيـــاناً صَبِرْ
وجُلُّ ما يَسقيكَهُ الــدّهرُ كَــدِرْ
فلـــــم أجِدُ شَيئاً مــن الفَقر أمَرْ
ألا تَرى أكثُر مـــــن فيهــا يفِرْ
مخافَـــــة الفَقرِ إلى نارِ سَقرْ؟!

العمر والدهر والحياة مسائل تعكس نظرة الشاعر للحياة وما فيها إلاَّ أن النظرة التشائمية للشاعر في هذه القصيدة تذهب إلى أبعد من كون العمر والعيش والحياة وحدها هي التي تحدد السعادة والشقاء لدى الإنسان, فالشاعر اغترف من الدهر ما اغترف حلوا أو مرارة سيما وأن المرارة أكثر وأشد. الحزن والكدر والمرارة والدهر أصبح يطيح بالشاعر من نواحيه ولكن يعود ليؤكد لنا أنه لم يجد في الحياة أمر من الفقر والعوز والحاجة إلى

الآخرين.إذا نظرنا إلى لغة القصيدة نجد فيها طلاوة, سيما وأن الحزن والتعاسة والمرارة, تنبثق من الدهر والعمر وأنها تتراوح بين الحلاوة والمرارة. فالفقر باعث للقلق والاضطراب والحزن ألا ترى أن الناس يعصون الله وأحكامه إنَّما خوفا من الفقر والوقوع فيه. ومع ذلك فأن الشعراء الأندلس لم ينصرفوا إلى حياة التأمل, لذلك بدت حكمتهم ساذجة بعيدة عن العمق, وتأخر ظهور الفلاسفة في حياتهم إلى عصور متأخرة من حياة الدولة العربية في الأندلس (الركابي، 1970، صفحة 116). فالصورة هنا محاكاة للواقع وتعبير عنه وأنها لاتخلق واقعاً جديداً بقدر ما يصور لنا معاناة الشاعر من هذه الآفاة والأمراض الاجتماعيةلكن الموت والحساب كانا دائماً مفر الشعراء و ملجأهممن الحزن والتعاسة, فالشاعر يقول في ذلك (الداية، 1993، صفحة 54)

وإن مقامـــي شطرَ يوم بمنـــزلٍ أخافُ علـــى نَفْسي بهِ لكثيرُ
وقد يهرُب الإنسان من خِيفة الرّدى فيدركُه ما خافَ حيثُ يَسيرُ!

خوف الإنسان من هذا وذاك لايحول بينه وبين الموت وأجله, فأنفعال الشاعر بالحياة وما فيها من المخاوف تسوقه دائما إلى موعده مع القدر. الحكمة والذكاء عند الشاعر أمر فطري فهولا يبحث عن المعاني كثيراًفالمشهد والصورة هنا واضحة في مجادلة الإنسان مع الحياة والعيش ولكن مع ذلك فأن الدهر يصيب من يشاء, وتتجّلى الحقائق الدينية في استعارات الشاعر، فحينما صورحقيقة الموت لم يبتعد أبداً عن الآية الكريمة :بسم الله الرحمن الرحيم " قُل لَّنينَفَعَكُمُ الفِرَارُ إن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أوالقَتلِ وإذًا لَّا تُمَتَّعونَ إلّاَ اقَليلا **."بيد أنّه أفاض في استعارته لكونه صيّر الرد وحشاً كاسراً لا نجاة منه .أنظر وهو يقول في قصيدة أخرى (الداية، 1993، صفحة 56)

منْ ظنَّ أنّ الدَّهْرَ ليس يُصيبه بالحادثاتِ فـــــإنّهُ مَغْرورُ
فالْقَ الزّمانَ مُهوّناً لِخُطوبِـــه وانَجزَّ حيثُ يَجُرُّكَ الْمَقْدورُ
وإذا تَقَلَّبَتِ الأُمـــــورُ ولم تَدُمْ فسَواءٌ المحزونُ والْمَسْرورُ!

لقد أكثر الشاعر من استعمال ثنائيات الضد في قصائده، فالدهر في هذه القصيدة من منظور الشاعر ورؤيته إلى القدر ومحكومية الإنسان فيه هو الذي يحدد مصير الناس شقاء وسعادة, إذ أعطت حالة التعجب في البيت الأخير من القطعة مايساعد على وجود ما يسمى بعنصر التنغيم الذي يعتبر وسيلة مسموعة غير مكتوبة, حين لا يتعامل مع الأداة الخاصة به, ثم أنها أعطتنا في الوقت نفسه اختلافاً في درجة الصوت علواً وارتفاعاً, ولعل اهتمام الشاعر بالظواهر الصوتية بصفة عامة يعكس ما يقال أن العالم العربي محكوم بدورات صوتية عديدة.

هناك اسقاطات من الشاعر بحيث نعرف منه شيئا عن الفترة التي عاش فيها. فالواقع أنه لم ينشأ من حكماء العرب وفلاسفتهم شعراء مجيدون قدر من نشأ منهم في الأندلس وحدها. ولم يكن للفلسفة تأثير على شعرهم إلاَّ من جهة معانيه الشعرية, فأنها صارت من سموا الخيال وقوة التصور وبراعة الابتكار بحيث تدل عل عقل صاحبها دلالة المطابقة (عتيق، 1976، صفحة 211). فالإستعارة في البيت الأول من القصيدة السابقة لابد أن تكون مستمدّة من التراث الشعري القديم سواء أكان هذا التراث جاهلياً أم إسلامياً أم أموياً أم غيرذلك من الثقافات القديمة (محمد، 2003، صفحة 141). فالذي يبدو أن الاستعارة مستقاة في هذه القصيدة منقول أبي ذؤيب الهذلي (1965، صفحة 3):

وإذاالمنيُة أنشبت أظفارهـــا الـــفيت كـــــلَّ تميمةٍ لا تنفع

إن لم تكون منقولا لنابغة الذبياني (ابراهيم، 1985، صفحة 227):

من يطلب الدهر تدركه مخالبه فالدهر بالوترِ تاجٍ غيرمطلوبِ

وحينما يتقلب الأمور والأوضاع فما من شيئا يعين الإنسان على أن يقلب وضعه سواء كان شقياً أو سعيداً فالحزن والسرور سيان عند الشاعر سيما وأن الشاعر كان له فكرة خاصة ونظرة شمولية في الحياة إذا أخذنا المراحل المختلفة من حياته بنظر الإعتبار, فهو عندما يصيّرالأمورضرباً من الإحساسات إن لم نقل إنساناً قضّه مضجعه، شخّص دلالة الصورة بالإستعارة، فعندئذ تكون الأداة وسيلة لتقريرالغاية المتوخاة كما فيقوله (الداية، 1993، صفحة 56)

وإذا تقّلبتِ الأمور ولم تدم فسواءٌ المحزون و المسرور

**من سورة الأحزاب، آية16 .

عند حديثنا عن فلسفة الشاعر ورؤيته في الحياة لابد أنْ نشير إلى احدى أهم قصائده التي نظمها في فترة الزهد من حياته والتي تدل على سخريته من الحياة وزيف جمالها وزوال متاعها وخلوها من الراحة والتواصل والاستمرارية إذ يقول فيها وفي الحياة والموت (الداية، 1993، صفحة 61)

أرى أهـــل اليسار إذا توفُّوا بنوا تلك المقابربالـــصخورِ
أبوا إلا مبـــاهأةً و فـــخرًا على الفقراءِ حتى فـي القبورِ
فأن يكـــنِ التّفاضل في ذراها فأن العــدل فـيها في القعورِ
رضيت بمن تأنّق فـــي بنـــاءٍ فبالـغ فيـــه تصري فالأمورِ
ألما يبصروا ماخرّبتـــها لدّ هور مـــن المدائن والقصورِ
لعمرأبيهم لو أبصروهـــــم لماعرفـــوا الغنّي من الفقيرِ
ولاعرفوا العبيد مـن المـوالي ولاعرفــوا الإناث من الذكور
ولامن كان يلبس ثوب صوفٍ مـــن البدن المباشر للحرير
إذا أكــل الّثرى هـــذا و هذا فـــما فضل الكبيرعلى الحقير

فلسفة الشاعر وعصارة حكمه تتجلى في هذه القصيدة بوضوح عندما يتحدث عن الحياة والموت, السعادة والشقاء , العذاب والمغفرة, الغني والفقير, القصور والقبور. كم هائل من المعاني الأخاذة استعمله الشاعر في هذه القصيدة من أجل إحكام سيطرته على المعاني حتى يتسنى للسامعين الأخذ من هذه المعاني والمقاصد التي تدل دون أدنى شك إلى بصيرته وقدرته على التلاعب بالكلمات والمعاني. فالشاعر لايستعمل عنصر المفاجأة عندما ينتقل من منظر إلى منظر, فهو يتدرج بسلاسة ؛ لأنُّه يمتلك موضوعاً جيداً, فهو يعيش في مناخ صعب, وفي موقف أصعب, إذ أن الشاعر يبدو لنا كان يتهيئ نفسيا للإنتقال إلى العيش الأبدي وترك الحياة وما فيها من الملذات سيما عندما تقادم به العمر و أوشك العجز والشيب أن ينال منه ومن قوته وعزمه وحبه للدنيا, وجعله يفكر في الدنيا وشأنها وحب الناس لها مع اصرارهم في العيش ونسيان الآخرة.

اذ أنَّ اهل اليسار تمتعوا بالعيش في حياة الدنيا حتى أنساهم الدنيا وما فيها سيما وأن الحياة تزول والإنسان فان إلاَّ أن الغرور بالعيش والإصرار على التمسك بالحياة جعلهم يتمسكون بها حتى عند الممات وفي نهاية المطاف. فهم حتى في بناء القبور ينسون الآخرة والحساب والموت و يزيدون من بناء الفوارق الطبقية بين الفقراء والأغنياء والقصد طبعاً المباهاة والمفاخرة بالدنيا وما فيها بالغنى والمال والجاه ولكن التفاضل في ذراها يقف عاجزاً بين القبور والعدل بين الاخرة والدنيا والمساواة فيها, فالغني غني في الدنيا والفقير العابد السابح بعمله غني في القبر والآخرة.

عندما بدء الشاعر بذكر القبور والتفاضل والمباهاة عند أهل اليساري من الأغنياء كان يقصد بذلك التطرف والغلو والإسراف والتأنق في الحياة وما فيها , فالذي يبني القبور بالصخور وينغمس في الحياة دون النظر إلى ما بعد ذلك مما تأتي به التقادم في السن من الموت والفناء يتمسك بالحياة وينسى زوالها وفنائها. حتى وأنهم لم يلتفتوا إلى ورائهم إذ أن الموت فاغراً فاه يلاحقهم بكل ماله من القوة والعزم. سيما وأن الحياة وما فيها من العيش الحلو الرغيد جعلهم يبنون القصور ويصرفون في ذلك الدهور لكن لم يدركوا أن الدهر كفيلة بمحوها وجعلها خرابة وأطلالا بعد حين, أو لم يبصروا إلى ما خربته الدهور من القصور والمدن. ولكن أين ذلك البصيرة والنظرة العميقة للحياة والموت عند ناس أخذهم العزة بالنفس والحياة.

صورة رائعة جميلة وكأن الشاعر يريد بذلك أن يصور لنا مشهد الفناء والانتهاء ولكن أهل اليسار لا يلتفتون إلى كل ذلك, ولو أبصروا لعرفوا أن الموت حائل بين الغنى والفقر. فالعبيد والحر والمولى سيان لدا الموت وملكه إذا لا فرق بين الإناث والذكور ولا من يلبس الحرير أو الصوف لأن الموت عادل في توزيعه للفناء والإنعدام , فهما سيان في الموت الغني أو الفقير.

شخصية الشاعر تبدو واضحة لنا في هذه القصيدة الرائعة في تلك المرحلة من مراحل حياته, اذ أن الشاعر كان متفاعلاً مع أحداث عصره السياسية والاجتماعية. وجاءت أشعاره لتصور لنا حياته بكل أبعادها وشخصيته المتعددة الجوانب (بهجت، 1988، صفحة 70), فلذلك نجده كثيراً ما يدعوا إلى استثمار الدنيا من أجل الآخرة والإكثار من عمل الصالح والخير. كانت فلسفة الشاعر تؤكد على ضرورة العيش في الدنيا وكأنها بوابة للآخرة (الداية، 1993، صفحة 58):-

فهل لك في الدنيا سِوى السّاعةِ ٱلتي تكون بهاالسرّاءُأوحـاضِرالضرّ
فما كان منهـا لا يحس ولا يـرى وما لم يكن منها عمي عن الفـكر
فطوبى لعبدٍ أخرج ٱللـه روحـه إليهِ مِن الدنيا علـــى عملِ البِرّ
ولكنّني حـــدّثت أن نـفوسهـــم هنالك في جاهٍ جليلِ و فـــي قدرِ

Adres
Kırklareli Üniversitesi, Fen Edebiyat Fakültesi, Türk Dili ve Edebiyatı Bölümü, Kayalı Kampüsü-Kırklareli/TÜRKİYE
e-posta: editor@rumelide.com

Adress
Kırklareli University, Faculty of Arts and Sciences, Department of Turkish Language and Literature, Kayalı Campus-Kırklareli/TURKEY
e-mail: editor@rumelide.com

وأجسادهم لايأكل الترب لحمهـا هنالك لا تبلـى إلى آخرِ الـدهرِ

لا تعني الدنيا للشاعر سوى ساعة تكون بها السراء أو الضراء. فهي لاتفيد ولا تجدي لو كان الإنسان مفكراً في الأمر. فالإنسان الصالح في الحياة من كان آخر أعماله يرضي الله. فالروح والنفس تكون في شأن عالي ومطمئنة في الجنان. ومن كان كذلك حتى جسده لايبلى إلى آخر الدهر. ثنائيات الضد تعطي في هذه القصيدة نغم وموسيقى رائعة للصور الفنية, فالسراء والضراء إنَّما تفيد بتقلب حال الدنيا من شأن إلى شأن وبقاء الحال على دوامه من المحال. ويقول في قصيدة أخرى عندما يتحدث عن العمر والإنسان (الداية، 1993، صفحة 47)

تَسألِني عـــــن حالتي أمُّ عُـــمَرْ
وهي تَرى ما حلّ بي مـــن الـــغِيَرْ
وما الَّذي تَسألُ عنـــهُ مـــــن خَبرْ
وقد كَفَاهَا الكشفُ عـــن ذاكَ النَّظرْ
وما تكونُ حالـتي مـــع الـــــكِبَرْ
اربدَّ مـــني الـــوجهُ وأبيضَّ الشَّعرْ
وصار رأسي شُهـــرةً مـن الشُّهَرْ

العمر والسن والشيخوخة من أكثر ما تناوله الشاعر في التعبير عن الحياة والفلسفة والحكمة إذ أن حالته تعبر عن تقادم سنه وتدهور نفسيته, ولكن ذلك لايمنع الشاعر من الحديث عن كل ما هو غريب من تصور الإنسان للتعقيد المادي للحياة وما فيها سيما وهو يحاور نفسه أو مع أناس آخرين قد يكون الشاعر أحبهم أو تخيل أن يصاحبهم في الواقع والحياة, فالنزعة القصصية التي يخلقها الشاعر في قصائده تدل على قدرة الشاعر الفنية واللغوية مع الإكثار من مخاطبة العقل وتحكيم المنطق عند تقديمه للحلول الاجتماعية في قصائده المختلفة, على الخصوص التي تتناول النقد الاجتماعي.

البعد الحقيقي والعميق لقصائده الفلسفية تتضح في كثير من الأحيان عندما يقدم الشاعر على معالجة مشاكل المجتمع. يقول الدكتور حكمة علي الأوسي في شعره وفلسفته"أما النظرات الفلسفية القائمة على التجربة الشخصية فهي, في نظرنا, القاسم المشترك الذي يلتقي عنده كل من يحاول من الشعراء أن ينظم حكمة عنده كل من يحاول أو يعبر عن تجربة" (الاوسي، 1987، صفحة 122). كثيراً ما كان الشاعر ضحية لتجاربه السيئة والمرة مما جعلته يتشأم أحيانا تشاؤماً شديداً وحاداً يعمم أحكامه بعيداً عن الإنصاف وعن متطلبات النظرة الواقعية التي لم تكدرها عاطفة متألمة, ولكنه على أي حال تشاؤم يعبر عن جانب حقيقي من الواقع الإنساني وإن لم يكن عاما في السلوك البشري. وأنه كان صريحا وواقعيا وصادقا في اعترافاته وعلى الخصوص مما أشرنا إليه في الأمثلة السابقة عندما يتحدث الشاعر عن عجزه من العيش كما كان فيما سبق وقد سلك في ذلك مسلكا قصصيا جميلا فيه طرافة وفيه تهكم على نفسه بأسلوب جميل بديع.

ولقد جعل كل خبراته في الحياة والمجتمع في مجموعة من قصائده الزهدية التي نظمها في المرحلة الثالثة من حياته. وأخير يمكن أن نقول أن الشعر كان الحياة الحقيقي للغزال, وقد انعكس تجاربه في الحياة على كل شعره, حتى وهو يتحدث عن الآخرين, ويبدو انه في آخر الامر قد ضاق ذرعا بالحياة من حوله, وبدا وكأنه يدفع نفسه إلى النهاية والفناء, وأنه لا رجاء فيما أقل لنفسه من قبل, وأنه لم يكن بد من أن يكره الحياة.

لقد أصبح الشاعر يجمع بين هموم الذات وهموم الجماعة ، يروم كشف الواقع واستشراف المستقبل متنقلا من التفسير إلى التغيير. وبمعنى آخر، لقد أصبح وعي الشاعر بالذات وبالزمن وبالكون مرتبطا بوعيه بالجماعة، ومتضمنا له. وماكان لشيء من ذلك أن يحدث لولا وعي الشاعر بالحياة وفلسفة العيش والتعايش ، وإدراكه للتحدي الذي يهدد حاضره ومستقبله، بالقدر الذي يهدد وجوده الذاتي . الأمر الذي جعل موقف الشاعر من الذات، ومن الكون، ومن الزمن ومن الجماعة، موقفا موحدا، تمليه رغبته في الحياة والتجدد والانتصار على كل التحديات، التي يرمز إليها برمز واحد، ذي طابع شمولي، هو رمز الموت الذي يعني موت الذات وموت الزمن الماضي بكل أمجاده والحاضر بكل تطلعاته سيما وإن الصراع بين الموت والحياة في تجربة الشاعر يعني في آخر الأمر الصراع بين الحرية والحب والتجدد، وبين الحقد والاستعباد والنفي من المكان ومن التاريخ.

الخاتمة

شخصية الشاعر بمختلف جوانب شعره وجوانب من تاريخ الدولة في الأندلس تقدم لنا دراسة موجزة عن حياته وسفاراته ورحلاته وتأثير ذلك في تكوين شخصيته الأدبية مع تشكيل نظرته العميقة في الحياة والإنسان و ظهور فلسفته بشكل واضح في قصائده الحكمية. ممارسة الحياة والتعبير عنها والتعليق عليها عند الشاعر ونظرته العميقة وفكره الفلسفي عن الحياة جعله يعبر تعبيرا صريحا وسريعا عما يراه, ويكاد يكون تصويرا له, ولكن بعين البصيرة, وعين البصر معا. ولقد جعل كل خبراته في الحياة والمجتمع في مجموعة من قصائده الزهدية التي نظمها في المرحلة الثالثة

من حياته.بذلك أصبح الشاعر يجمع بين هموم الذات وهموم الجماعة ، ويروم كشف الواقع واستشراف المستقبل متنقلا من التفسير إلى التغيير. وبمعنى آخر، لقد أصبح وعي الشاعر بالذات وبالزمن وبالكون مرتبطا بوعيه بالجماعة، ومتضمنا له. وماكان لشيء من ذلك أن يحدث لولا وعي الشاعر بالحياة وفلسفة العيش والتعايش.

فالصورة الشعرية في قصائد الغزال كانت محاكاة للواقع والتعبير عنه, وأنه لم يخلق واقعاً جديداً لم يعرفه الإنسان العربي في ظل العيش مع المعطيات الجديدة في الأندلس وكأن هذه الخصال صارت في كثير من الناس حوله عادات نزلت منزلة الطبائع!. كانت المشاكل الاجتماعية التي عانى منها الجتمع العربي في الأندلس آنذاك من الموضوعات المهمة التي أثارها الشاعر في كثير من قصائده سيما وأن مشكلة الرياء قد تم الإشارة إليها عندما شبه الشاعر الإنسان بالثعلب مكراً والثعلب كما نعلم رمز للخداع والمكر والرياء. فالإنسان يركِّز ذاته على وجوده الإنساني، ويصل هناك إلى الطمأنينة؛ لا إلى تلك الطمأنينة الوهمية المتولدة من البطالة وفراغ الفكر، بل إلى تلك الطمأنينة الإضافية التي يصحبها نشاط في جميع القوى والعلاقات.

مقدرة الشاعر وإمكانيتهفي تناول الأحداث والمشاكل الاجتماعية من باب الهزء, والهزل, والإضحاك على الشخصية المعالجة. ومن جهة اخرى نجد حسن تعامل الشاعر مع التكرار لبعض الكلمات والمعاني ساعده على خلق جو موسيقي يساعد على تعميق الجو العاطفي المطلوب, وخلق الاثر النفسي المناسب, فهو يخلق أحيانا الجناس الموسيقي لقصائده من خلال التكرار. فالنزعة القصصية التي يخلقها الشاعر في قصائده تدل على القدرة الفنية للشاعر والقدرة اللغوية مع الإكثار من مخاطبة العقل وتحكيم المنطق عند تقديمه للحلول الاجتماعية في قصائده المختلفة, على الخصوص التي تتناول النقد الاجتماعي. فهو شاعر حكيم له فلسفته الخاصة في الحياة والناس ومشاكلهم الاجتماعية مع الاحتفاظ بنظرته الخاصة إلى بعض المشاكل أو الأمراض الاجتماعية التي تطيح بالإنسان وسعادته ويقلل من تفأله وتزيد من التشاؤم عنده.

الفلسفة والفكر إلى جانب الحكمة وأصالة الرأي وحسن التدبر كانت من الصفات المهمة للشاعر في قصائده عامة, فهو إلى جانب كل ما قلناه من الحكمة والفلسفة كان له جانب آخر وهو جانب النصح والتوجيه.

Kaynakça

Abu Fazıl İbrahim, Muhammed (1985). *Divanü'n-Nabiga ez-Zübyani*. 1.Baskı, Kahire: Darul'l Ma'rifa.

Abu'l- Haşab, İbrahim Ali (1970). *Tarihu'l-Edebi'l-'Arabî el-Endelüsî*. Kahire: Daru'l-fikri'l-Arabi

Atik, Abdülaziz (1976). *Edebi'l-'Arabî fi el-Endelüsî*. Beyrut: Darul el-Nehza el-Arabî.

Behçet, Müncid Mustafa (1988). *Edebü'l-Endelüsî min Fethi hatta sukûtî Granadatu*. Musul: Daru'l-Kutup.

el-Avsi, Hikmet Ali (1987). *Fusulûn fi'l-Edebu'l-Endelûsi fi Karneyin el-Sani ve'l-Salisi'l-Hicreti*. 5. Baskı, Bağdat: Babil.

el-Bendak, Muhammed Salih (1979). *Yahya bin Hakem el-Gazal Emirü'ş-Şuara el-Endelûs fi karni's-salis el-hicri*. 1.Baskı, Beyrut: Daru'l-afaki'l-cedidetun.

el-Dayye, Muhammed Razvan (1993). *Divanu Yahya bin Hakem el-Gazal*. Beyrut: Daru'l-fikri'l-muasir.

el-Fahuri, Hinnal (1960). *Tarihu'l-Edebi'l-'Arabî*. Beyrut: Polisiyye.

el-Makkari el- Telmesani, Ahmet bin Muhammed (2008). *Nefhu'l teyip min husun el-endülüs el-ratiyip*. Beyrut: Daru's-sadr.

el-Rukabi, Cevdet (1970). *Fi'l-Edebu'l-Endelûsi*. 3.Baskı, Kahire: Daru'l-Ma'rif.

el-Zeyin, Ahmet ; Abu'l-Vefa, Mahmut (1985). *Divan el- Hazeyliyin*. Kahire: Daru'l-Kavmiyye.

Heykel, Ahmet (1985). *el-Edebü'l-Endelusî mine'l-Fethi ila Sukuti'l-Hilafe*. Kahire: Daru'l-Ma'rif.

Muhammed, Muhsin İsmail (2003). *es-Sure'ş-Şaariye fi Şiiri Yahya bin Hakem el -Gazal el-Endelusi*, (Granada: Granada üniversitesi,).